عميد الأدب العراقي
الشيخ محمّد رضا الشّبيبي

إعداد: سليمان بيضون

*** عالم دين، وزعيم وطني، من طليعة حاملي مشعل الحركة الفكرية في العراق إبّان الثورة العربية على المحتل البريطاني.**

*** شاعر وأديب، من أوائل مَن طرق الموضوعات الاجتماعية وتناولها في شعره، كان عضواً في المجامع العلمية العربية في دمشق، والقاهرة، وبغداد.**

*** تولّى وزارة المعارف العراقية مرّات عدّة، ثم رئاسة مجلس الأعيان ومجلس النوّاب العراقي.**

أعدّت هذه الترجمة -بتصرّف- استناداً إلى ما في موسوعة (أعيان الشيعة) ج٩ ص٢٩٠، ومصادر أخرى.

الشيخ محمّد رضا، بن الشيخ محمد جواد، بن محمّد، بن شبيب، بن إبراهيم، بن صقر الشبيبي، يُنسب إلى «شبيب بن صقر البطائحي»، من بني أسد.

موطنه «بطن المواجد» في جنوب العراق، ولد في النجف الأشرف في ٦ شهر رمضان عام ١٣٠٦ هجرية.

نشأ كما كان ينشأ أقرانه في تلك العصور من أبناء الأسر العلمية، فأوّل شيء يتوجّه إليه هو الكتاتيب لتعلّم القراءة، والخطّ، وختم القرآن، وكان نصيبه أن يختم القرآن على سيّدة صالحة مقرئة هي السيدة مريم البراقية.

وكان في النجف يومذاك بيتٌ من بيوتها تتسلسل فيه مهنة تعليم الأطفال هو «آل حصيد»، فتولّى الشيخ هادي حصيد تعليمه الخطّ في مكتبه مع غيره من الأحداث. ثم تقدّمت به السنّ فدرس علوم اللغة العربية على أساتذة كان في مقدّمتهم الشيخ محمد حسن المظفر، والشيخ محمد جواد الجزائري، ودرس المنطق على السيد مهدي الطباطبائي، والسيد حسين الحمّامي، والسيد هبة الدين الشهرستاني، ودرس علم الفقه وعلم الأصول على أكثر من أستاذ.

وظهرت للشيخ رضا ميول أدبية وموهبة شعرية اتّجهت به نحو دروس الأدب وعلومه؛ فتخرّج على السيد حسين

الشيخ محمّد رضا الشّبيبي

القزويني، والشيخ هادي الجعفر، وعلى والده الشيخ جواد الشبيبي وآخرين. على أنّه لم يتخلَّ عن متابعة الدراسات الفقهية والأصولية العالية، فحضر دروس الشيخ كاظم الخراساني في الأصول، والشيخ فتح الله النمازي المعروف بـ«شيخ الشريعة» في الفقه.

نشاطه الإصلاحيّ

امتازت مرحلة أواخر أيّام الدولة العثمانية قبل نشوب الحرب الكونية الأولى بيقظة فكرية ظهرت في الأقطار التابعة للسلطنة، ومن جملتها العراق. وكان هدف تلك اليقظة المطالبة بإصلاح شؤون الدولة، فأسهم الشيخ رضا الشبيبي مع آخرين من عراقيّين وغيرهم في الدعوة إلى الإصلاح.

فكانت له مقالات في الصحافة العراقية والسورية والمصرية، ونُشرت له قصائد في شعر الإصلاح الاجتماعي والسياسي، ومقالات أدبية، وتاريخية، ولغوية تلقّفها الجيل الصاعد بشغف بالغ.

ويقول مؤرّخو الأدب العراقي الحديث إنّه في أوائل مَن طرق الموضوعات الاجتماعية وتناولها في شعره بين شعراء العراق وأولّهم بين شعراء النجف.

الشيخ محمّد رضا الشّبيبي إلى جانب رئيس الحكومة السيد حسن الصدر

في الحرب العالمية الأولى

لمّا أُعلنت الحرب الكونية الأولى واندلعت في العراق سنة ١٩١٤ ميلادية شارك الشيخ الشبيبي في هذه الحرب إلى جانب الجيش العثماني. وحضر معركة «الشعيبة» الطاحنة التي خُذل فيها الجيش المذكور. ومن ثم عاد مع فلول الجيش المتقهقر إلى مدينة الناصرية.

ولمّا عقدت الهدنة العامة سنة ١٩١٨، بعد انتهاء الحرب باندحار ألمانيا وحليفتها تركية، قام الحلفاء والبريطانيون منهم بالخصوص باحتلال العراق، ونصّبوا حكومة قوامها فريق من ضباط الجيش. ولم يُحسب للشعب العراقي حساب في تأليف هذه الحكومة، ومن ذلك التاريخ شرع العراقيون بمقاومة تلك السلطة الأجنبية، وبدأوا يطالبون الإنكليز بالجلاء والوفاء بعهودهم التي قطعوها للعرب بشأن حقّهم في تقرير المصير. وألحّ العراقيون على الإنكليز بأن تتكوّن في العراق حكومة مستقلّة ذات سيادة. وكان للشيخ الشبيبي في هذا العهد جهود معروفة في مقاومة دسائس المحتلّين، والمطالبة بما قطعوه للعرب والعراقيين من عهود ووعود. ولمّا اضطرت حكومة لندن إلى تكليف نائب الحاكم السياسي العامّ في العراق «السير ارنولد ولسن» باستفتاء العراقيّين، وجّه الحاكم العام المذكور بواسطة حكام الأقاليم من الضبّاط والسياسيين أسئلة معيّنة إلى أهل العراق في اجتماعات كانت تعقد في مكاتب الحكّام المذكورين ويشهدها فريق من الوجوه والزعماء، وكان السؤال الأوّل عن جنسية الحاكم الذي يريدونه، والثاني عن شكل الحكم، والثالث عن حدود العراق. فكانت أجوبة العراقيين مغايرة تماماً لرغبة الإنكليز.

طالب الشيخ رضا الشبيبي في الاجتماع الذي عُقد في مدينة النجف بحكومة دستورية يرأسها ملك عربي. وعبّر بذلك عن رغبات أحرار العراق على صورة أثارت امتعاض الحاكم العامّ.

رحلته الوطنية

ولمّا أخذت السلطات الإنكليزية المحتلّة تماطل وتسوّف في تلبية مطالب العراقيّين والاعتراف بحقوقهم المشروعة، وقد أعلنوها وطالبوا بها مراراً خصوصاً بعد إجراء الاستفتاء الذي تقدّم ذكره. ولمّا كان قادة الثورة العربية في سورية والحجاز يجهلون ما يجري داخل العراق من صراع عنيف بين أحرار البلاد والسلطات الإنكليزية، وكان من الضروري إعلام زعماء العرب خارج العراق بحقيقة الحال، هناك فكّر الشيخ رضا الشبيبي بأن يقوم بهذه المهمّة. وفاتح بذلك فريقاً من أصدقائه وزملائه العاملين من علماء ورؤساء وغيرهم من الشباب الناهض وأقنعهم بضرورة تنفيذ هذه الفكرة، فوافقوه الرأي.

قام الشيخ منتدَباً عن العراقيّين لدى الحكومتين العربيّتين في مكّة المكرمة ودمشق الشام إذ ذاك برحلة إلى البلاد

العربية، وزُوّد بوثائق مذيّلة بتواقيع زعماء البلاد وعلمائها وقادة الرأي العامّ فيها، تضمّنت انتدابه ليمثّل العراق لدى الحكومتين المذكورتين وإبلاغهما مطالب العراقيّين وإيقافهم على الأحوال الجارية في بلادهم. وقد غادر العراق في أواخر سنة ١٩١٩ميلادية إلى مكّة المكرمة سالكاً طريق البادية من البصرة إلى جبل شمّر في نجد فالمدينة المنورة. ومن المدينة إلى مكة.

في الحجاز

ولمّا وصل الشيخ مكة استقبله الشريف حسين في قصر الإمارة وخلا به، حيث قدّم له ما معه من الوثائق، وتحدّث إليه، وأطلعه على حقيقة الأحوال في العراق، وأنّ العراقيّين يعانون كثيراً من الضيم والإرهاق تحت إدارة الاحتلال، وأنّهم يطالبون أشدّ المطالبة بالحرّية والاستقلال، وأنّهم مستعدّون لحمل السلاح وإعلان الثورة والتضحية في هذا السبيل بنفوسهم ونفائسهم. وقد طلب الشبيبي إلى الشريف حسين أن يبذل جهده في سبيل تحقيق مطالب الشعب العراقي، وتكليف رسله وممثّليه في مؤتمر الصلح الذي كان ملتئماً في باريس بذلك.

وكان الأمير فيصل بن الحسين يعاونه شباب أكفّاء من السوريين وغيرهم يمثّل والده في المؤتمر المذكور، فما كان من الشريف حسين إلّا أن أعلم فيصلاً بالوضع الراهن في البلاد العراقية، وبأن يدافع عن حقوق العراق في مؤتمر الصلح استناداً إلى تلك الوثائق التي تسلّمها من الشبيبي في مكّة المكرّمة، ثمّ كتب بهذا المعنى رسائل أجاب بها العراقيّين من علماء وزعماء وأعلمهم بتسلّم الرسائل والوثائق التي حملها الشبيبي، ووعدهم وعداً قاطعاً في كتبه بأنّه مستعد للتضحية بنفسه وعرشه في سبيل استقلال العراق بحدوده المعلومة.

وبعد أن أقام الشيخ رضا مدّة لا تقل عن ٤٠ يوماً في مكّة، بارحها إلى المدينة المنوّرة ومنها استقلّ القطار إلى حدود الشام.

في دمشق

وفي دمشق اجتمع الشيخ الشبيبي بالأمير فيصل بعد عودته من لندن، وبقادة الحركة العربية من عراقيّين وسوريّين وفلسطينيّين وغيرهم، وتأكّد لديه منهم وصول تلك الوثائق العراقية، وهكذا مثّل العراق في عدّة جمعيات ومؤتمرات من أشهرها المؤتمر العراقي الذي التأم في الشام سنة ١٩٢٠ ميلادية، ونادى -أي المؤتمر- على رؤوس الأشهاد باستقلال العراق استقلالاً تامّاً على أن تقوم فيه حكومة دستورية.

مع رئيس الجمهورية العراقية عبد الكريم قاسم

في العراق

هذا وفي هذه الفترة الصاخبة من تاريخ البلاد، ظهر للجميع أنّ الإنكليز لم يجدوا بدّاً من إنهاء عهد الاحتلال، والموافقة على قيام دولة مستقلّة ذات سيادة وفقاً لما تقرّر في مؤتمر القاهرة الذي عقد سنة ١٩٢١.

وفي صيف السنة المذكورة وصل فيصل وحاشيته على باخرة انكليزية أقلعت بهم من جدّة إلى البصرة، ومنها توجّهوا على السكّة الحديد فمرّوا في طريقهم بالديوانية والحلّة وكربلاء إلى النجف وأرياف الفرات، وكان لفيصل باعتباره ثائراً عربياً استقبال باهر في تلك المدن، وقوبل بمظاهرات ترحيبية كبيرة وخطب ثورية بليغة، كما أنّه ألقى عدة خطب في تلك المناسبات، وكان الشبيبي يجتمع بفيصل وصحبه طول مدّة إقامته في تلك الجهات وخصوصاً في النجف وبغداد بعد وصوله إليها، ولا يضنّ عليهم بالنصح ومواجهتهم بالواقع.

ولمّا نودي بفيصل ملكاً على العراق في تلك السنة، كان

يستدعي الشيخ الشبيبي ويستشيره في الأمور المهمّة، وقد رُشّح لإشغال بعض المناصب العليا في أوائل أيّام العهد الفيصلي ولكنّه كان يعتذر ويفضل الانقطاع للدراسة والتأليف، إلى أن كانت سنة ١٩٢٤ وفيها عهِد إلى «ياسين الهاشمي» بتأليف وزارته الأولى، فأبرق اليه وهو مقيم في النجف قائلاً إنه يسرّه التعاون معه وأن يشغل منصب وزارة المعارف في الوزارة الهاشمية.

في مناصب الدولة

تردّد الشيخ الشبيبي كثيراً في قبول الوزارة، ولكن إلحاح أصدقائه في بغداد والنجف اضطرّه إلى القبول، فأشغل منصب وزارة المعارف فترة لا تزيد على سبعة أشهر، ولمّا عُرضت اتفاقية النفط على مجلس الوزراء، وكانت من الاتفاقيات المجحفة بحقوق العراق، اقترح تعديل بعض بنود الاتفاقية على أساس يكفل للعراق زيادة العوائد المالية، فلم يجد من يعضده. وفي جلسة خاصّة بينه وبين الهاشمي سأله عن موقفه الأخير من الموضوع، فقال الهاشمي إنّ إبرام هذه الاتفاقية من واجب وزارته. وعلى إثر ذلك غادر الجلسة وذهب إلى مكتبه في ديوان الوزارة وبعث بكتابه الذي يستقيل فيه من الوزارة لأنّه يرى أنّ الاتفاقية مجحفة بمصالح العراق.

وقد تقلّد الشبيبي منصب وزارة المعارف خمس مرات، وإن لم تكن مدة الاستيزار طويلة فيها؛ كان ذلك في السنوات: ١٩٢٤، ١٩٣٥، ١٩٣٨، ١٩٤١، ١٩٤٨، واختير سنة ١٩٣٥ عضواً في مجلس الأعيان وانتخبه هذا المجلس رئيساً له سنة ١٩٣٧. وقد رشّح في الانتخابات النيابية فكان عضواً في المجلس النيابي غير مرّة، وانتخب رئيساً للمجلس النيابي سنة ١٩٤٣، وأمضى سنة في الرياسة ثمّ أعيد انتخابه لرئاسة المجلس المذكور سنة ١٩٤٤، ولكنه استقال قبل انتهاء السنة.

في المناصب العلمية

انتخب الشيخ رضا الشبيبي في كثير من المؤسّسات والمجامع العلمية واللغوية داخل العراق وخارجه، فهو عضو «نادي القلم العراقي» ورئيسه نحواً من عشرين سنة، ورئيس «المجمع العلمي العراقي» سنة ١٩٤٨، وقد منح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة تقديراً لبحوثه في الأدب والتاريخ، وكان قد انتخب عضواً في «المجمع العلمي العربي» في الشام سنة ١٩٢٣، كما انتخب عضواً عاملاً في «مجمع اللغة العربية» في القاهرة وذلك في أواخر سنة ١٩٤٧.

بحوثه ودراساته

للشيخ الشبيبي دراسات وبحوث تاريخية وأدبية وسياسية بعضها مطبوع وأكثرها مخطوط. من ذلك بحث عنوانه «فنّ التربية في الإسلام»، ودراسة في اللغة عنوانها «أصول ألفاظ اللهجة العراقية»، وأخرى في الأدب موضوعها «أدب المغاربة والأندلس في أصوله المصرية ونصوصه العربية»، وهي محاضرة ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة. هذا إلى بحوث غير قليلة في التاريخ والأدب واللغة ألقيت في دورات مؤتمر «المجمع اللغوي في القاهرة» وعددها خمس عشر دورة. وقد نشرت محاضر الدورات المذكورة وفيها أمثلة من تلك البحوث والمحاضرات. وآخر مجهود ظهر له كتاب عنوانه (رحلة في بادية السماوة) نشرت في بغداد. ومن آثاره (ديوان شعري) طُبع في القاهرة سنة ١٣٥٩ هجرية، وكتاب (أبو الفوطي مؤرّخ العراق) في ثلاثة أجزاء.

وفاته

كانت وفاة الشيخ الشبيبي ببغداد سنة ١٩٦٥ ميلادية بعد رجوعه من المؤتمر الذي انعقد في القدس ليلة الجمعة ٢ شعبان ١٣٨٥ هجرية، وقد ناهز الثمانين من العمر، ونُقل جثمانه إلى النجف فدفن فيها.